الذكرى السابعة لـ7 آ ب 2001 رؤية سياسية لتجربة شخصية

جريدة النهار الخميس 07 آب 2008 - السنة 76 - العدد 23435

7 آب 2001 محطة تاريخية مهمة لأضخم عملية قمع قامت بها السلطة الأمنية السورية اللبنانية منذ 1994 بهدف الإجهاز على المسيرة الاستقلالية التي شهدت انطلاقتها العملية في 20 أيلول 2000 من بكركي.

وقد سبقت هذه الانطلاقة أحداث مهمة مهدت لها، أهمها جلاء الاحتلال الإسرائيلي عن جنوب لبنان في 25 أيار 2000، حيث أصبح بإمكان القوى السيادية المطالبة برفع الوصاية السورية عن لبنان، دون أن تتهم زورا" بالعمالة لإسرائيل. وكان قد فشل لقاء كلينتون- الأسد في جنيف في الشهر عينه وتوقفت المفاوضات نهائيا" على المسار السوري- الإسرائيلي. وفي 10 حزيران، توفي الرئيس السوري حافظ الأسد وتغيرت القيادة في سوريا. فأضعف هذان الحدثان النظام السوري ووضعاه على طريق العزلة الدولية. وأجريت الانتخابات النيابية في آب 2000 وفقا" لقانون غازي كنعان السيئ الذكر. وتم توقيت نداء بكركي الشهير بعد حدوث كل هذه التطورات المهمة جدا".

ومواكبة لهذه التطورات، ازداد التنسيق في هذه الفترة بين القوى السيادية: من جهة لجنة التنسيق الثلاثية (التيار، القوات، الأحرار) ومن جهة أخرى لقاء قرنة شهوان غير العلني والذي كان يضم في صفوفه أعضاء لجنة التنسيق الثلاثية إلى جانب شخصيات أخرى. وكانت زيارة غبطته لأميركا مناسبة لترسيخ خطابه السيادي. وعند عودته، تم تنظيم استقبال شعبي حاشد في بكركي، بناء على إصرار لقاء قرنة شهوان غير العلني على اقتراحه في هذا الخصوص. فبات للحركة السيادية في لبنان رأس أو مرشد وخطاب وطني وشعبية واسعة. فأصبح لا بد من استكمال بنائها بإعلان تأسيس لقاء قرنة شهوان الرسمي والموسع في 30 نيسان 2001 ليكون بالإضافة إلى التيار الوطني الحر ساعدها السياسي.

ومع التطور والنمو السريعين للحركة السيادية بدأت تتلبد الغيوم في سماء النظام الأمني السوري - اللبناني وبدا له وكأن التواصل بين الحركة السيادية والسيد وليد جنبلاط بات ينذر بتمدده إلى الشهيد الرئيس الحريري وربما إلى الرئيس بري، أي إلى داخل السلطة، مما كان يضاعف الخطر عليه. وأتت زيارة غبطته للجبل بين 3 و5 آب 2001 لترسي المصالحة التاريخية وتشكل نقلة نوعية في الوضع. فكانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. فانقضت السلطة على الحركة السيادية بهدف إلغائها إلغاء كاملا كحد أقصى ووضع حد لنموها المطرد كحد أدنى.

وإذا كان 7 آب عنوانا لقمع طلاب الحركة السيادية وبعض كوادرها وقياداتها إلى جانب بعض الصحافة، فإنه بالدرجة الأولى عنوان لخطف واحتجاز و"محاكمة" توفيق هندي، لما كان لهذا الأمر من معان وتداعيات خطيرة.

ولا بد هنا من التذكير بأن خطة السلطة تمحورت حول "محاكمتي": ففبركت مؤامرة جعلتني بطلها، مفادها أني تآمرت مع إسرائيل بهدف لا يقل عن التعرض لأمن الدولة، أي للانقلاب على السلطة الأمنية القابضة على حرية لبنان. لا داعي للدخول في آلية هذه الفبركة لأن هذا موضوع جزء أساسي أعددته خلال فترة سجني لكتاب في طور التأليف.

إذا"، لماذا بين كل قيادات الحركة السيادية انتقتني السلطة لتفعل فعلها؟ ألتحاكم من خلالي نهج الممانعة الصادقة الأصيلة النظيفة المقدامة الجريئة ونموذج المناضل من أجل الحرية المختلف عن نموذج السياسي التقليدي؟! ألأنني الحلقة الأضعف؟ أو لأنني الحلقة الأقوى؟ أو للإجهاز على الحركة السيادية أو لقاء قرنة شهوان الذي صور في القرار الإتهامي على أنه مُنْتَج إسرائيلي أو للإجهاز على القوات اللبنانية حيث لعبتُ دورا" أكثر من أساسي منذ 1994 في إعادة إحيائها وتفعيلها، ودورا" أكثر من أساسي في منع خطفها من قبل السلطة إلى مواقع سياسية تخالف طبيعتها؟! ألأنني كنت على تقاطعات في غاية الخطورة: بكركي، قرنة شهوان، القوات، لجنة التنسيق الثلاثية، "ألأنكم تتصالحون في الجبل أنتم وجنبلاط بعد أن دمرتم لبنان"، أو "لأنك كنت دائما" ضد الدولة عندما كنت يساريا" كما عندما أصبحت قواتيا"؟ (هذا ما قاله لي المحقق الرئيسي في أول جلسة تحقيق في وزارة الدفاع)...ألخ. الجواب: لكل هذه الأسباب وغيرها. والحقيقة، إن سير التحقيقات وخاصة الأولية منها سهلت علي الإجابة عن هذا التساؤل: لقد انتقتني السلطة لأنني كنت في الوقت عينه الحلقة الأضعف والحلقة الأقوى.

الحلقة الأضعف لأنني لست من "العِرق" اللبناني كما قالوا لي في أول جلسة تحقيق في وزارة الدفاع، ملمحين بذلك إلى أصول عائلتي الحلبية. والمضحك المبكي أن تصدر ملاحظة كهذه من قبل من كانوا ينفذون أوامر عنجر! وقالوا لي: إنك سريان كاثوليك، أي لا أنتمي إلى الطائفة المارونية الأساسية إنما إلى أقلية صغيرة، لا ثقل سياسيا" لها، وفي هذا الكثير من الفوقية والإحتقار للأقليات الصغيرة. وكانوا على علم بأنني لم أكن ثريا" بالرغم من أصولي البورجوازية كما أنني لم أسرق عندما كان بمقدوري أن أفعل، كما كانوا يعلمون أنني لست من عائلة سياسية وليس لدي عشيرة أو قبيلة او منطقة وأن انتمائي القواتي قد يعطي نوعا" من الصدقية لطبيعة الاتهام الخطير الذي ألصقوه بي. فاعتبروا أن كل هذه النقاط هي نقاط ضعف تفقدني القدرة على الدفاع عن نفسي كما لو كنت مقطوعا" من شجرة وأن خطورة الاتهام سوف تحول دون أن يتجرأ أحد للدفاع عني فأصبح لقمة سائغة في أفواههم.

كما كنت الحلقة الأقوى لأربعة أسباب:

أولا"، للدور التواصلي الحواري التوحيدي الفاعل الذي لعبته على الساحة السياسية

المسيحية وحتى الوطنية. فكانوا يعتبرونني مقربا" من غبطة البطريرك صفير وان تأثيري عليه كان في غاية السلبية، علما" أن لغبطته رأيا" وطنيا" واضحا" قد يتماهى مع رأي هذا أو ذاك، ولكن لا أحد يمكنه التأثير على اقتناعاته ومسلماته الوطنية. وكان التنسيق بين التيار الوطني الحر وتيار القوات اللبنانية أكثر ما يرعب السلطة، وكنت قد آثرت العمل على هذا التنسيق منذ 1996 وصولا" إلى لجنة التنسيق الثلاثية في العام 2000، كما لعبت دورا"محوريا" في تأسيس لقاء قرنة شهوان الأول في 1999 الذي توقف بعد عدد من الجلسات نتيجة ملاحقات تعرضت لها من قبل المخابرات، كما لعبت الدور عينه في تأسيس لقاء قرنة شهوان غير العلني وفي الإصرار على توسيعه وخروجه إلى العلن في 30 نيسان 2001. إلى جانب ذلك كله، كنت أتواصل مع القيادات المسلمة، وقد عقد أول لقاء بين الأستاذ وليد جنبلاط وبيني لمدة ساعة في بيت الصديق المرحوم وديع عقل وبحضوره، في ظل أوضاع خطيرة جدا" بين مرحلتي إنتخابات ال 2000. وشكل هذا اللقاء فاتحة العلاقات القواتية مع جنبلاط. في ذاك الوقت كانت سوريا تعتبر أي لقاء يتم بين أي قيادي مسلم مع أي طرف من الأطراف السيادية المسيحية خارج رقابتها تآمرا" موصوفا" عليها، باعتبارها المسلمين طبيعيا" في خندقها.

ثانيا"، لأن خطابي السياسي يتصف بالصلابة والليونة في الوقت عينه، وكان شعاري: التمسك بالمبادئ والليونة في التطبيق. فكنت مثلا" أطالب بتنفيذ الدستور والطائف ولا أتخذ موقفا" انقلابيا" منهما. لذا، كان هذا الخطاب في غاية الإحراج بالنسبة للسلطة خاصة أنه صادر عن طرف مصنف تقليديا" على أنه متطرف وله جمهور واسع.

ثالثا"، لأني كنت "لاعبا إقليميا ودوليا"، كما قال لي المحقق الرئيسي في وزارة الدفاع في إحدى جلسات الاستجواب. وقد هزئت منه عندها لما في هذا القول من مبالغة. والحقيقة هي أنني كنت أتعاطى بما يمكن إعتباره لونا" من ألوان الديبلوماسية السرية، بهدف تغيير موقف القوى الدولية الفاعلة من تلزيم إدارة لبنان لسوريا وإقناعها بأن اللبنانيين قادرون على حكم أنفسهم بأنفسهم دون أية وصاية خارجية.

رابعا"، لانتمائي القواتي، أي لجماعة سياسية أساسية في الوسط المسيحي. ولكن ما هو أهم من انتمائي هذا هو الدور المحوري الذي لعبته ضمن هذه الجماعة منذ 1994. فقد عملت على عدم تمكين السلطة من إلغاء القوات وطنيا" وسياسيا" وشعبيا" بعد حلها وسجن رئيسها. وفي مرحلة لاحقة قبيل توقيفي، تصديت بشراسة لمحاولات السلطة نقل القوات من موقعها السيادي الطبيعي إلى موقع التبعية الواقعية. وقد كنت في كل الفترة التي سبقت أسري استقرئ الواقع اللبناني، أصوغ المواقف القواتية، أتحدث باسم القوات وأتخذ المبادرات باسمها، وأتواصل مع كوادرها، وبالتالي، أساهم بقوة وفاعلية في حضورها على الساحة الوطنية. قد يتساءل البعض: من وكلني بذلك؟ لا أحد سوى ضميري واقتناعاتي وإحساسي بالمسؤولية وذلك أولا" لأن موقعي في القوات كان قبل حلها الموقع السياسي بامتياز، وبالتالي كان اندفاعي هذا طبيعيا" جدا" وفي سياق استمرارية هذا الدور، وثانيا"، لانه في تلك الأوقات العصيبة لم يشأ أو لم يجرؤ أي من قيادات الصف الأول باستثنائي على التحرك في سياق الحفاظ على الثوابت القواتية.

وهكذا، فانتقائي ضحية من قبل السلطة كان لاعتبارها أن الفتك بي لن ينتج تداعيات ذات شأن، هذا من جهة، ولأن فاعليتي في التصدي لها باتت في نظرها تتطلب التخلص مني، من جهة أخرى، وهذه هي سمة الديكتاتوريات، أي أن تغتال أخصامها عندما تستشعر الخطر الآتي من تحركاتهم. وأجزم أن السلطة الأمنية السورية – اللبنانية أرادت في مرحلة أولى أن تلغيني جسديا" بدليل فقداني لما يقارب التسعة كيلوغرامات من وزني خلال الأحد عشر يوما"، فترة احتجازي في وزارة الدفاع، مما يدلل على حجم التعنيف الجسدي والنفسي والمعنوي الذي تعرضت له في أخطر مرحلة من حياة إنسان، أي مرحلة الخمسينات، وبدليل آخر أن القرار الظني طالب لي بحكم الإعدام. والمضحك المبكي أن أحد القضاة المعنيين الرئيسيين بمحاكمتي قال لي، بعد ثلاثة أشهر من خروجي من السجن وبصوت مرتفع أمام جمهور واسع في صالون كنيسة الحكمة جاء للتعزية بفقيد وذهل الناس لما سمعوه: "قلت لعديلك عندما كنت لا تزال قيد المحاكمة أنهم سوف يحكمونك بالسجن خمسة عشر شهرا ليحفظوا ماء وجههم".

أما، لماذا اضطروا للتراجع في النهاية؟ ومن أنقذني؟ لا شك في أن المحامين والسياسيين والإعلاميين وجمعيات حقوق الإنسان والأصدقاء والمحبين والمجتمع المدني والشعب وقفوا إلى جانبي في محنتي. أنا أشكرهم جميعا" أنا مدين لهم. غير أن الدور الحاسم كان لثلاثة: زوجتي كلود وغبطة البطريرك صفير وأسامة بن لادن.

أسامة بن لادن، بتنفيذه عملية 11 أيلول، غيّر المعطيات الدولية واستشعرت سوريا خطر انقلاب الموقف الاميركي، مما جعلها والسلطة اللبنانية التابعة لها أكثر حذرا" في التعاطي مع ملف المعتقلين السياسيين ولا سيما ملفي وبالتالي أكثر قابلية للاستجابة لضغوطات غبطته للإفراج عني.

البطريرك صفير لأنه منذ اللحظة الأولى، وبالرغم من التضليل الذي حاولت أن تمارسه عليه السلطة لتضرب ثقته بي، لم يتوانَ لحظة عن المطالبة بإصرار بالإفراج عني وإعادة حقوقي إلي، وهي، للمناسبة لم تعد حتى هذا التاريخ كاملة. ولكن هذا موضوع آخر. ويوم الجمعة الحزينة عام 2002 زارت زوجتي كلود غبطته وخلال هذا اللقاء بدا التأثر على وجهه فقال لها والدمعة في عينه: في الحقيقة "لازم اعترف بهاليوم المقدس انو توفيق بسجنه عم يدفع عنا كلنا وعني بشكل خاص، اعتذريلي منه وانا كنت لازم كون محلو بالحبس".

كلود لأنها جعلت من سجني قضية وطنية. وهي كذلك. ولكن أيضا" لأنها أجادت في طريقة طرح قضيتي بكثير من الذكاء وبشجاعة لا مثيل لها ودون استغلال الحالة المأسوية التي كنت أعيشها وكانت تعيشها معي لأغراض الدعاية الشخصية أو لإرضاء طموحات مبطنة. وهي أول من طرح قضية القضاء المسيس والأجهزة الأمنية وفضحت علاقتهما العضوية في إطار النظام الأمني الذي كان يحكم لبنان وهي واجهتهم أحيانا" وحيدة في أوج جبروتهم. وقد وصلها في حينه أكثر من تهديد مفاده أنها إن لم تصمت، فمصيرها يكون مشابها" لمصيري. وهي لم تصمت! وهكذا تكون السلطة قد اعترفت من خلال صب غضبها علي، بفاعلية مواجهتي لها...

لقد قضيت في المعتقل 461 يوما" من الرعب والعذاب والإهانة وفقدان الحرية والكرامة الإنسانية. وباحتجازي غير المشروع، فهم قهروا وأهانوا وعذبوا زوجتي وأولادي وأهلي وأصدقائي ورفاقي ومحبيّ وشريحة واسعة من المجتمع كانت ترى في سجني رمزا" لسجنها وعذابها. ولكي يبقى 7 آب مجرد ذكرى، وكي لا تعاد المأساة، يتوجب على اللبنانيين التوحد حول شعار" لبنان أولا""، فعلا" وليس قولا" فقط، وذلك باخراج لبنان من سياسة المحاور الدولية والإقليمية القاتلة وتحقيق حياده العسكري في شرق أوسط على فوهة بركان. وهذا الأمر لا يتحقق بالتشنجات العبثية التي تخرب لبنان دون نتيجة والتسويات المؤقتة التي تبقيه في حالة غيبوبة ولا تشفيه، بل بحل شامل يحمي لبنان الكيان التعددي المميز في محيطه ويؤمن بناء الدولة العصرية القوية الآمنة المستقرة السيدة الحرة العربية الديموقراطية.

توفيق هندي

(كاتب سياسي)